قصة قصيرة

الركض بلا ساقين

قصة بقلم حسن الخياط

صدرها المكشوف لفضاء السيارة الخانق ، والثدي المغطى بوجه الطفل يفرقها بخدر لذيذ يوشك أن يدفعها للنوم . على فخذها كان رأس الصبية يزاحم ساقي الطفل الملتصقين ببعضهما . لم يكن السائق يعنيه وهو يجتاز الطريق الترابي غير الوصول للشارع العام . عندها يعتدل في جلسته ويعتني بترتيب هندامه . ثمة في الجانب الايسر تلوح نساء ينشغلن بأجسادهن المحنية تحت لفائف العشب . من شقوق النافذة كان التراب يتكوم في منحنيات الوجوه . السائق يتطلع خارجا ويبطىء من حركة السيارة . زمّر ، وغنى بصوت خفيض مع ايقاع أصابعه القابضة على المقود المندّى بالعرق . حدّقت الام في عيني الصبية السوداوين ، والفم المنتهي لشفتين ناعمتين . ملامحها كانت تحضر بعضا منه . لكم كانت تتمنى ان يزورها هاجس منه ، يطمئنها : انها غير مخطئة في قبول اخيه زوجا بعد وفاته . جثته انتهت تحت ركام الارض ، ربما تستنشق بعض ذرات التراب المدماة منه ، والتي تدفعها الاطارات المسرعة . ضغط الطفل على ثديها ، واستيقظ ، بينما كان الركاب منصتين للعجوز التي تتحدث عن خطبة ولدها المسرّح توا من الجيش . راقبت تتالي الاعمدة كخطوط مطر من وراء الزجاج « لا زلت شابة والميت لا يعود » . عينا الصبية تتسعان وتمسكان شيئا بأجفانهما . الثديان المرتخيان على فم الصفير يذكرانها برمانتي السرير الخشبي ... غالبا ما كان يفرد قبضتيه عليهما ، حينما يداهمه الحزن . تحسّ بحرارة الطفل تنفذ لأعلى ركبتيها،وعيناها تتسعان مخترقتين ظهر السائقَ المتصاب في رأس العربة العجوز.

قالت الصبية : في المدينة سنذهب للسوق .

مسحت شعرها : اكيد ذلك يا حبيبتي ...

الصمت يفلفهم ، والعجوز تتحدث لصدرها المكشوف لرذاذ بصاقها المقطع بالادعية . بفعل الحرارة كانت السماء تبدو اكثر زرقة ، والاسفلت يلاحق نفسه كسيل بشري أسود يتدافع بالمناكب . ثقلت اليه والصبية في بطنها . كانت مخيرة بين فتوتها والصفار المتقاسمين فخذيها .. طويل ، ولكنه تجاوز حتى طعم وحرارة أخيه فيها .. ظهيرة ترتخي في اهتزاز الرؤوس كدراويش دائخين : « دهسته سيارة مسرعة ، فالميت كثيرا ما يتمشى ساهيا بمحاذاة الشارع العام » . الصبية يفرز جسدها رائحة منه ، وتشتد رعشتها حينما تضع رأسها على بطنها وتتطلع لعينيها . في الليل تتوزع يداها كصليب مطروح ، كانت مشروخة من تعب النهار ، وبين اغماضة الجفنين يتقوس عليها ظله الطويل .. الطويل كالذكرى .

ــ ماما ! الاشجار تركض معنا ..

قبلتها وضمتها اليها .

قالت العجوز : سيكون زواجا كبيرا .. نذري أن أرقص كالصبايا .

همست الصبية : لا تستطيع أن ترقص مثلي « وهزت

قال السائق عبر استدارة راسه : ولدك محظوظ يا والدة .. ليتني مثله .

« بعد أن مات أبدلوا ملابسها السوداء ، وكان هو .. طعم الفلفل الحار تتذوقه بقسوة من فمه . جسدها المهتز مع تلويحة الضفائر انتهى الى النضج ، ثم الذبول .. » .

ــ ياه .. « صرخ السائق » ، اهتزت الاجساد بفعل توقف السيارة المفاجىء .

الوجوه التفتت الى اليمين . اللوري الكبير مقلوب باتجاه الترعة ، وأجساد البقر موزعة في بركة الدم . كان انين الجريحات كنساء يبكين في غرفة مقفلة .

ضمت المراة طفليها ، وتمتمت بالدعاء . بعد أن عاد السائق ، قال : عشرة ابقار ميتة .. أما نظرتم لعيونها ؟

همست المراة : كعينيه ينزف وحيدا ... يا عيني عليه .

الطريق والسائق والعجوز يجعلونها تخاف المدينة . تمنت ان تكون في بيتها في هذه الظهيرة التي تخدر حبل الظهر ، لكن المنبه يعلو ليثقب الراس .

في المرآب توقفت السيارة . بانتظارها خمسة وجوه الفتها في القرية ، فيها شيء يجعل وجهها منقسما

بينها وخارجه . انقلب الطفـــلان من الباب ، تركتهما باكيين . كانت صامتة ، كأن حجـــارة سقطت في بئر عميقـة .

انتبهت على صوت السائق :

ـ سأتحرك .. انزلي !..

الحجل المرتطم بحافة الباب رنّ . وقفت، وأغمضت عينيها . في ظهرها سرت قشعريرة البرق في الجليد . صمت في داخلها كل شيء ، حتى لهاثها كان يبدو بعيدا عنها . أحد الخمسة ، ضمها وبكى . انقادت لاصابـع الصغيرين . كانت كحيوان يقاد للذبح .

همست : يا الهي ...

قالت العجوز : سنعود الليلة للقرية ...

صرخ صوت : بل نبحث عنه ..

هي أجابت : الصغيران يريدان اباهما ..

حين عبروا الجسر ، لم تتساءل ، ومن أجل أن تكون مع يقينها ، استدارت لوجه الصبية ، كـــانت الاقدام أمامها تنزلق على الرصيف ، مرتبكة ، تلاحق ظلالهـا . قريب اليها كان صفّ السيارات يتجمد ويذوب بعيـدا عنها . لثوبها نظرت . الثوب الذي يحب ...

يسار ويمين عينيها كانت صفوف الحوانيت مفتوحة كأيدي متسولة . تأوهت ، واتكأت على ركبتيها، وانتحبت حين أحست بالتداعي ، ضمت صغيريها . في امتـــداد الشارع كانت ترى الوجوه الخمسـة تهتز كيقطينـــات يابســـة .

قالت العجوز : سنراه .. مجنونا .. عاريا .

الخطوة وقفت ، استدارت ، تجمدت . كل شيء يدعوها للصراخ ، لدعك قدميها كي يقفا . الشوك فـي الجلد يجعلها تنفر من كل شيء ، لكنها دارت على نفسها ، وتقيأت على شعر الصبية . أحست انهـــا تشيع عزيزا عليها ، كأن التابوت الوهمي يبدأ من الخط البشري البعيد الى النهاية التي تتكوّم وراءها . تنتبه لجسدها المتصالب على الرصيف الضيق ، لو كانت في القرية لاستطاعت أن تفكر بطريقة مختلفة ، لكن المدينة كانت تبتلعها ، تجعلها أسيرة ، مفتتة ، لا يعني لديها من يكون الميت ، وبأيـــة طريقة انتهى .. المهم انهم سيسافرون بـه الى المقبـرة البعيدة .. عندها ستختلي مع نفسهـــا ، وتفكر فـي حياتها ..

الاجساد الخمسة كانت تنقل خطواتها كحـــراس تعودت ممراتها « آه ! لو انها استطاعت ان تفقأ الجمود ، ليقال شيء . كم يكون عليها لتبدو متماسكة أمام المارة ، وتبعد طفليها على ملامحه المتيبسة . ربما سينفران منها ، لانها ... لم تبك ! » .

همس القريب اليها : سيكون الامر صعبا عليهما .

رد الآخر : سنبعدهما عنه .. « لم تجب . زفرت، وضربت جبينها » .

صرخت العجوز : لم يمت ... ليس هكذا ..

قال الكبير : اليه سنصل .. سنختصر الطريق .

انعطفـــوا نحو الزقاق الضيق . بعض النســـوة ملتصقات على عتبات البيوت .

ادارت المرأة راسها ونظرت كمن ينتظر أحدا ، لكنها في تلك اللحظة شعرت انها تتجالد بشكـــل يخجلها . تخيلته قافزا أمامها بجسده النحيف . دفعت نفسهـــا للحاق به ، لكنه كان يلتم ككرة سريعة لا تتوقف .

ـ أتعلمين ما أصابه ؟.. قلنا للطبيب : اعملوا شيئا له . هزّ يديه ! حالته شديدة .. غافل الحرس وهرب من سياج المستشفى .. نحن نبحث عنه .

الحديث الذي يصلها من الرجل الكبير ، يجعلها أكثر وحدة مع نفسها .

كل ما تدركه : انه ميت .. لكنهم يحاولون ايهامهـا بجنونـــه .. وان صح ذلك ، فليس لديهـــا الآن غير الصغيرين . توقفوا في نهاية الزقاق المفضي لحركـــة الشارع المتزايدة صخبا .

ـ هنا سنجده .. انتظروا « صرخ أحدهم » .

أحاطوها ، وصمتوا . ما يدفعها لمراقبة المارة غير قدميها الراجفين ، وخفقات قلبها المتواثبة . على الجدار اتكأت ، وأغمضت عينيها . تمنت أن تتقيأ أحشاءهـــا ، دمها .. صمتها المتحجر ...

سحبتها الطفلة لدمية كانت تدير رأسها مـن وراء زجاج الحانوت .

حين عادوا كانت عينا الدمية كافيتين لان تضحكـا الصغيرين بغمزها لهما . نصف وجهها كان منقسمـــا باحساسين : بين الصغيرين والظلال الخمسة التي مـــا زالت تدير رؤوسها باتجاهي الشارع ، وهي تتابع مرور السيارات المسرعة . على الرغم من احساسها بالتداعي، كانت تتصلب لتبدو أمام المارة كامرأة تنتظر أحدا . المكان الضاج يترك في داخلها شعورا بغربة لم تألفها ، غير ان الصغيرين كانا يقربان الدمية المتحركة لوجهها الملتم فـي ابتسامة مجهدة . كانت اصابعها تسيح خلـل رأسيهمـا الساخنين . الرجل الكبير اقترب منهـــا ، لمّ عباءته وجلس : لا تتصورين كيف كانت حالتـــه .. لم يتذكر أحدا .. الجميع في المستشفى ضجروا منه .. يصرخ.. يمزق ملابسه كطفل مهبول .. انزوت في الحديقـة وبكت .. ذلك الرجل المعافى الشجاع ما الذي دفعـه للجنون .. هكذا ينتهي ؟!.. قسمة !

من كل الجهات كانت تحسّ بفـــراغ يبتلعها .. الرجل مجنون .. وهم بانتظاره .

ـ ها هو !.. انظروا !..

يمكن لوجهها أن يتجه بتلقائية جهة الصوت الـذي ارتفع من جانبها ، لكنها هزت رأسها . ذاكرتها تجلبـه بملامحه الماضية والمتخيلة وسط الحقيقة التي تتحرك في امتداد الشارع . أرادت أن تصرخ . سدوا فمها، واحتكت ركبتاها بالسياج الحديدي المثبت على حافة الرصيف .

عندما لا يكون أمامها غير البكاء ، تضرب عارضة السياج بقبضتيها ..

« ها هو .. يا الهي .. » . في نصف جسده العاري كانت تلوح كدمات سوداء كبيرة . هذا النحيل يبدو لها غريبا . بعينيها تدعو الصغيرين اليه .

مرة أخرى تغزوها الذاكرة كخليط من وضعيات لا يتركب منها شيء ثابت . الشارع يظهر لها كنهر متموج اهوج يبتلع جسده وهي مكبلة على الشاطىء . الصبية استندت على الحافة السفلى للسياج وصرخت : « أبي يركض وراء السيارات .. ستسحقه ! » . حين يعجز عن مسك أحدها ، كان يعاود اللحاق بالسيارة الاخرى التي تتباطأ مناكدة له ، ممتزجة بالسباب والضحك والبصاق . اجتازت الصبية السياج وركضت نحوه . جمدت حركة الشارع كشريط سينمائي توقف فجأة على الشاشة . الانحناءات التي يقوم بها جسمه جمدت وانتهت للاسترخاء . مسح لحيته الكثة ودق قدميه العاريتين . أثناء ذلك رمى الصغير الدمية للشارع . كانت الدمية على الاسفلت تهز ذراعيها وراسها كأنما تدقها خلل ازيز مكوكها . مرق من مشبكات السياج . بينه والصبية كانت المسافة تتقلص ، أما هو وبكلا قبضتيه كان يضرب مؤخرة سيارة صغيرة ، دفعت صاحبها للخروج اليه !

ـ مجنون ... مجنون ... اتركه ..

بشزر نظر اليه ، جعل الشاب ينتكس عائدا لمكانه. الاسفلت يتموج الآن في عينيها ، واقفة . مشدودة للاذرع ، والسياج هو الذي يجعل عظمتي حوضها تنسحقان عليه . ليس على الصغيرين سوى أن يسحباه نحوهما . صوت شاحنة كبيرة أوقفته .

ـ لا يتحرك أحد نحوه .. دعوه .

كان الكبير يعلق على اهتزاز الاجساد . بعد أن تعالى صوت بعض المحركات كان جسده يرتخي متجها نحو الصغيرين بابتسامة كتكشيرة راس خروف مذبوح.

عاد الشارع جامدا . الشمس تترك في ملامحه أخاديد رجل منهار . وربما كان كذلك ... تلتوي ركبتاه ، ويدفع صدره مكابرة وشموخا . كان يقف فاتحا ذراعيه وساقيه . صرخت الام : « اسحباه نحونا .. هو .. ها »

لم يلتفت ، وعادت ركبتاه للارتجاف ، لا زال الشارع ممحوا من ذاكرته . حين استدار لصف السيارات الواقفة ، بصق عليها . سقط عند أقدام الصغيرين . انحنى على الدمية الساقطة من يدي الصغير ، حين رفعها ، هزها . خارجه لم يرتفع صوت يثيره ، على الرغم من تقبيله الصغيرين فقد كان ينظر اليها . لم تكن قادرة على الحركة . بينهما كان ركام الماضي يعود حيا .. تراه كما في الحقل ، الصغير على الكتف والصبية على صدره . لو كان ميتا ، سيجعلها البكاء واللطم متوحدة مع ذاتها . أما الآن فالاحجار المسننة في قلبها ، تتكسر الى الاصغر والاصغر . أسنان تأكلها بلا انتهاء . كل شيء أمامها يجمدها كليا . ما عليها سوى أن تخادعهم ، وتفلت منهم . حدث ما أوقفها . حمل الصغيرين . كان يحدق بقدميه . بكل قوتها دفعت ذراعيها خارج السياج وامسكت راسه . هذا ازيز محرك الشاحنة . كان يبدو متحرجا من وقوفه في البقعة التي تفصلهما . دفع اصابع قدميه أماما ، وتجمد كسكين محراث ، منكباه تكورا وتحركا كلولب في الهواء .

كانت الشاحنة تتباطأ قريبا منه ، نفثت دخانها بقوة . بكل قوته أمسك دعامتها الخلفية ، لكنها انطلقت بسرعة مفاجئة .

تشير كل العيون المتطلعة اليه ، انه سيتركها ، لكن خطوط الدم النازف من ركبتيه تؤكد انه سينتهي عظاما .

ولربما ان المراة الراكضة خلفه ستعثر عليه بلا ساقين ..

العراق ـ ذي قار

صدر حديثا :

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تاليف الدكتورة رضوى عاشور

دار الآداب